مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد10/ العـدد: 04 (2022)، ص:107–125

تيزي وزو بين الأصالة والحداثة: قراءة تاريخية

Tizi Ouzou between authenticity and modernity: a historical reading

رشيد بن راشد

جامعة محمد بن احمد (وهران2)، benrached.rachid@univ-oran2.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/16 تاريخ القبول: 2022/11/25 تاريخ النشر: 2022/12/12

ملخص :

نستهدف في هذه الدراسة القراءة التاريخية لمنطقة من المدن الجزائرية وتسليط الضوء في رحلة البحث، بالعودة إلى أصول تأسيس المدينة أو المنطقة وصولاً إلى عصر الحداثة وما بع الحداثة. نتناول الموضوع بتحليل الظواهر والأحداث التي انعكست على المنطقة المسمّاة الآن؛ "تيزي وزو" .

اعتمدنا المنهج التحليلي التاريخي لسرد الوقائع والأحداث التاريخية لمنطقة "تيزي وزو" حالياً. في ظل التغيرات الثقافية بالموازاة مع مقتضيات المجتمع. في محاولة لإبراز المراحل التاريخية المهمّة التي كانت المنعرجات كبوادر تشكّل ملامح المنطقة. فخلصنا في الأخير من خلال البحث والدّراسة لذات السياق إلى؛ وجود تنوع ثقافي في الجزائر منذ آلاف السنين. لذا فإنّ الحكمة تلزمنا بطرح مكونات هويتنا في إطار تكاملي، "فالأمازيغية" والعروبة والجزائر تتسع لهما.

الكلمات المفتاحية: تيزي وزو، أصالة، حداثة

Abstract :

In this study, we aim at reading the historical area of Algerian cities and highlighting the journey of research, returning to the origins of the founding of the city or region until the age of modernity and the aftermath of modernity.

We have adopted the historical analytical curriculum to recount the historical facts and events of the Tizi-Zou region at present. In the light of cultural changes in parallel with society's

requirements. In an effort to highlight the important historical stages that were marked as cadres shaping the region's features. Finally, through research and study of the same context, we concluded to " The existence of cultural diversity in Algeria for thousands of years. Therefore, wisdom obliges us to put the components of our identity within an integrative framework, "Amazigh", "Arabism" and Algeria.
Keywords: Tizi ou Zou, authenticity, modernity

***المؤلف المرسل:** رشيد بن راشد

1مقدمة:

من اهتمامات المؤرخين الاجتماعين في الغالب؛ تتبع السلوكيات وتوثيقها لحياة أفراد القبيلة؛ لما لها من خصائص ومميّزات تفصلها عن باقي الشعوب والمجتمعات. إنّ لمفهوم القبيلة منذ آلاف السنين وإلى غاية اليوم؛ إشكالات غير قابلة للتجاوز في الوضع المجتمعي بين ثابت ومتغير، هوية القبيلة تكمن في الخصوصية وهي القيم والمثل والمبادئ والأعراف التي تشكل الأساس لبناء الشخصية الفردية أو المجتمع وهوية القبيلة هي عقيدتها، ولغتها وثقافتها والحضارة التي عاصرت تاريخها، وإذا اعتبرنا القبيلة أيضا الوعي بالذات الاجتماعية والثقافية وهي ليست ثابتة وإنما تتحول وتتغير تبعا لتحول الواقع الاجتماعي لكل مجتمع من المجتمعات، ولأن المجتمع الجزائري عرف العديد من التوترات بين ثنائيات عديدة مترادفات لمعنى واحد : التقليد والتجديد، المحافظة والتحديث، الجمود و والتحرر، الرجعية والتقدمية، الأنا والآخر، المحلي والعالمي، القديم والجديد، ومنها الأصالة والحداثة.

في موضوع دراستنا أردنا التطرق إلى منطقة "تيزي وزو" لعمق تاريخها وحضارتها إلى فترة ما قبل التاريخ. لها معالم دالّة على ذلك في منطقتي "تيقزيرت" و"أزفون". زيادة عن منطقة "ذراع الميزان" و مساحتها الجغرافيا المعروفة بتضاريسها الخلابة. والرومان الذين قاموا بالغزو على منطقة شمال إفريقيا، قاموا بتسميتها: "مونت فيراتوس". والقصد من هذا المفهوم هو جبل من حديد،

وتوالت العديد من الحضارات بالمرور على المنطقة، نتاج الغزو الذي تعرضت له بلد الجزائر في القديم، مثل "الفينيقيين" الذين دخلوها محتلين في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد. وكانت لهم عدّة نشاطات اقتصادية وتجارية بواسطة الإبحار بالسفن (جوليان، 1978، صفحة 192).

لكن، عندما دخل الرومان المنطقة في حدود الفترة ما بين القرن الأول ما قبل الميلاد إلى غاية القرن الرابع بعد الميلاد. قاموا بتشييد مدن لها مهام حربية عسكرية، وحضرية على طول ساحل "تيقزيرت". سميّت ب: "لومنيو". وأطلق كذلك اسم "روزاسوس" على مدينة ازفون. بعدها أتى البيزنطيون فأعادوا بناء الأحياء والمدن المدمّرة من طرف "الوندالي"ن في القرن الخامس. وقامت كونفدراليات في "تيزي وزو" خلال مرحلة العصور الوسطى، وتولت قيادة المدينة في القرن الرابع عشر امرأة تدعى "شيمسي"، من عائلة عبد الصمد (أجيرون، 1975، صفحة 58). واستناداً على هذه الأحداث نحاول صياغة الإجابة على هذا التساؤل: **هل التمسّك بالقيم القبلية الأصيلة يعتبر ابتعاد ورفض للحداثة؟ وهل يمكن الحديث عن ثوابت ومتغيرات في القيم الاجتماعية القبلية في المجتمع الجزائري؟.** ولمزيد من التوضيحات نضيف التساؤلات الفرعية: كيف تحولت تسمية مركز "سباؤو" إلى تسمية تيزي وزو؟ ما هي العوامل الجيوسياسية والثقافية التي جعلت من منطقة "تيزي وزو" عاصمة الاقتصاد بين القبائل الكبرى؟ ما هي أهم المحطات التاريخية لمنطقة "تيزي وزو" قبل وبعد نشأتها؟

الأهمية والهدف من هذه الورقة البحثية في سياقها التاريخي؛ تسليط الضوء نحو منطقة القبائل وإبراز العصبية كبناء اجتماعي واقتصادي وثقافي وسياسي في ما بين الأصالة والحداثة. ونقوم باستهداف منطقة "تيزي وزو" ومراحل نشأتها بين فترات زمنية متفاوتة، الغزو المسيحي في المنطقة، ثم دخول الأتراك إلى الجزائر، وبعدها مرحلة الاستعمار الفرنسي. ونتطرق إلى المنطقة من المنظور الاجتماعي في ضوء الدراسات السوسيوتاريخية عن طريق التحليل التاريخي.

اعتمدنا المنهج التحليلي في قراءة أفكار ورؤى المؤرخين والمفكرين الاجتماعين اعتمدنا في الدراسة المنهج السوسيوتاريخي بتفكيك الأحداث والوقفات التاريخية لمنطقة القبائل عامّة، و"تيزي وزو" خاصّة . ثمّ إعادة تحليل

المراحل المتعاقبة لنشاتها، وبعد ذلك يأتي تركيب أجزاء هذه الأحداث لمعرفة الجانب السوسيولوجي للمنطقة وانثروبولوجيا الشعب القبائلي من خلال ثقافته في ظل القبيلة مابين الأصالة والحداثة، واعتمدنا كذلك بوصف المنطقة بمراحلها التاريخية الحقيقية التي مضت للاستفادة منها في حاضر المنطقة (تيزي وزو) ومحاولة إبداء رؤية تنبؤية لمستقبل المنطقة. وقبل الانطلاق في المناقشة وتحليل الأفكار والرؤى الواردة في الدّراسة؛ وجب توضيح المفاهيم الاصطلاحية للدّراسة لغرض إيصال المعاني وفق سياقها العلمي لدى ذهن القارئ، وإحالة الأفكار لذات الموضوع. فيكون الفهم متناولاً عند الجميع من القراء والباحثين. وكلّ هذا يأتي وفق الأساسيات التي تقوم عليها الدّراسة في تحقيق غايتها العلمية. وتأتي المصطلحات على النحو التالي:

- **تيزي وزو:**

جاء في تسمية منطقة القبائل ب "الزواوة" كما جاء في ذكر ابن خلدون: "وما زال سكان الغرب الجزائري يستعملونها وهي عين الصواب". أمّا عند غيرهم فالمنطقة معروفة ب "القبائل"، وأهلها "قبايل"، ومن المرجح أن يكون الأتراك العثمانيون وراء ترويج هذه التسمية الطارئة، فقد استعمل القنصل الأمريكي في الجزائر "وليام شالر" في الفترة (1816-1824)، تسمية "القبائل" عند حديثه عن المنطقة في مذكراته المنشورة سنة (1826)، وكذلك عند حمدان ابن عثمان خوجة في كتابه "المرآة" الصادر في باريس (1833). ولا شك أن الفرنسيين قد أخذوا هذه التسمية عن الأتراك، ومهما يكن من أمر ما فما زالت الذاكرة الشعبية في منطقة القبائل تحتفظ بكلمة "زواوة" عبر الأجيال والأشعار والأغاني التراثية، ومن أشهر علماء الإصلاح الذين تلقبوا باسم "الزواوي" محمد السعيد أبو يعلي الزواوي، وبا عزيز بن عمر الذي كان يوقع مقالاته في جريدة البصائر باسم الفتى "الزواوي (جوليان، 1978، صفحة 65).

وإنّ تسمية المنطقة "تيزي وزو" يعود إلى ترجمة الكلمة الفرنسي: (Col des genêt) أي الممر الجبلي "الوزالي" وكذلك تعود التسمية لكثرة تواجد هذه الشجيرة في شعب المنطقة، ويتفق المؤرخون بخصوص أصل تمركز السكان "بتزي وزو" على

أن الأتراك هم الذين انشئوا المركز ويرجعون تاريخه إلى منتصف القرن السابع عشرة تقريبا، وبعد نهاية الحكم للمسلمين في اسبانيا وسقوط غرناطة، وتوالت الأحداث بداية من الحملة الصليبية ضد بلدان شمال إفريقيا، والاحتلال الاسباني لبجاية الذي يعتبر الحدث المهم في منطقة القبائل، وبعدها تنصيب السلطة التركية بالجزائر، كما أن الأتراك في هذه الفترة قد احتلوا وادي يسر حتى مدينة دلس. (مالتسان، 1979، صفحة 98) وبداية من هذا التاريخ دخلت شخصية جديدة في مسرح الصراع على السلطة تتمثل في "بكتوش" الرجل ذو الرمح بالأمازيغية، وبعد وفاته خلفوه من أصبحوا ينعتون بأهل "بختوش" كانوا قد غادروا "كوكو" ليستقروا بظاوريروهي قرية كبيرة بمنطقة "العزازقة" يقطنها أيت غبري. والذي ضعّف سلطة بني القاضي إلى تسيب الأمور وعدم انضباط العشائر والاتجاه نحو الفوضى، وظلت الحال هكذا بالنسبة "للعمرواة" الذين لم يترددوا في الإغارة على جيرانهم من سكان يسر الذين كانوا تابعين إداريا ومنذ مدة طويلة للأتراك، فكانت هذه الفرصة التي ينتظرها الأتراك للتوغل في منطقة القبائل، فرأوا أن الوقت مناسب لإرسال بعض الفصائل إلى وادي "سباؤو" (الكعاك، 2003، صفحة 174)، وكان طبيعيا أن تلاقي الهجمات الأولى مقاومة ولكن الأتراك كانوا أكثر عدة وانضباطا من منافسيهم وانتهوا بفرض أنفسهم تارة بالقوة وأخرى بالطرق الدبلوماسية، إلى أن توصلوا إلى الاتفاق مع "العمراوة" على أن يقيموا مركز مراقبة على المرتفع المطل على الممر الوزالي من ناحية الجنوب.

- **أصالة (تاريخية):**

من المفاهيم المتداولة، الأصالة تعني العودة إلى الماضي القديم والتجاوب معه على أساس أنّه من القيمة التاريخية لحدث أو ظاهرة. فالأصالة التاريخية ليست في جوهرها البحث عن الجذور العميقة فقط؛ إنّما اهتمام بمرحلة تاريخية معينة بحدّ ذاتها كحلقة لسلسلة تاريخية (بلقاسم، 1980، صفحة 61). بمعنى لا يجوز الحديث عن الأصالة في غياب تاريخ الظاهرة أو الحدث، والتمام هو العكس. إنّ غالبية الاتجاهات الفكرية قريبة من الحداثة على حساب الأصالة التاريخية؛ وهي إشكالية بين الماضي والحاضر، أو القديم والجديد، أو التراث والحديث.

وهناك من يتجهون نحو الأصالة من دون الحداثة؛ فيسقطون في عمق القديم والتمسك بالماضي، فتحدث العزلة فينسى الحاضر، فالعودة للماضي يصير أمر ذاتي إلى ذاته. فهذا النوع من الاتجاه له الافتخار بالقديم ولا حاجة لما سواه. فتأتي المحافظة إلى ما خلّفه القدماء المتأخرين بنشر الأصالة التاريخية. والحقيقة أنّ أصحاب هذا الاتجاه لا يعيرون قضايا العصر أيّة قيمة حاضرة، فيمارسون التملق الاجتماعي ويقعون في نرجسية الماضي (بلقاسم، 1980، الصفحات 63-74).

والحضارة من غير أصالة تاريخية في جذورها؛ هي سقوط في الاستئصال بتركة الماضي وثقل القديم. والحداثة كفيلة بتأهيل نفسها في والحاضر دون تدخل المثقفين ورغبتهم في رفع شأن الذات على الزمن وترسيخها بين ليلة وضحاها. فهي في الواقع تلجأ إلى العزلة والوقوع في نرجسية المستقبل. فبالتالي يسهل دحضها باسم أصالة الماضي وتبعية الحاضر، فلا تكون إلاّ في أوساط محدودة ويغلب عليها الطابع النظري، فتشارك في تعزيز الأصالة دون الحداثة في انعزاليتها وغلبة القول على العمل. في حين تمكن الحداثة من دمج الواقع؛ فإنها تقتلعه من جذوره أو تعمل على ذلك. (بلقاسم، 1980، صفحة 102) فالأصالة ترتبط بالحداثة، وهذا الارتباط يعبر عن علاقة الفكر بواقع الحاضر. فأصالة الماضي هي الفكر على مستوى التاريخ، والحداثة هي الواقع على مستوى السلوكيات. إذن؛ الأصالة هي جذور الفكر، والحداثة معايشة الحاضر. فهما وجهتان لمنطق واحد؛ التجديد الذي تعرضه أصالة الماضي والحداثة على المستوى الأفقي، والذي يعرضه الفكر والواقع على المستوى الرأسي ومن ثم تُصبح الأصالة والمعاصرة منطق الالتزام بقضايا العصر مع أكبر ضمان ممكن من حيث إمكانيات الحل والتطبيق، فتسقط نرجسية الماضي التي جعلت جلّ تقدمها مرهون بالعودة إلى تاريخها. كما تسقط نرجسية المستقبل انطلاقا من اعتبار التفكير في تاريخ الماضي صفة حضارية لتأسيس الحاضر والتطلع إلى المستقبل، والعالم قد يتغيّر بالفعل سواء في التاريخ القريب أو التاريخ البعيد متى توافرت شروط التغيير الكامنة داخل الأصالة ومن خارجها، داخل المعاصرة ومن خارجها دون إقصاء للأصالة (بلقاسم، 1980، صفحة 126).

- **حداثة:**

توسع انتشار مفهوم الحداثة في الغرب بعد نهاية الثورة الصناعية. وتشكلت ملامحه على أنقاض الأفكار المناهضة لوصاية الكنيسة على المجتمع الغربي. ترسخ مفهوم الحداثة عند الغرب في بدايات القرن الثامن عشر، وانتقلت أفكارها تدريجياً إلى مجتمعاتنا العربية. فالأحداث والظواهر التي تزامنت مع عصر الحداثة صنّفت على أنّها معاصرة مقارنة بما أتى قبل هذه المرحلة وتطوّراتها التاريخية. فالحداثة ليست معزولة عن التاريخ بسياقاته وحيثياته؛ بل هي انعكاس عن صيرورة مرحلية تاريخية أصولها ممتدة إلى عصور طويلة، فهناك من يرجعها إلى فلسفة ديكارت والعقلانية. فمفهوم الحداثة ارتبط في جذوره إلى العقلانية التي تبلورت أفكارها إلى مشروع إحداثي، ضد كلّ ما هو ميتافيزيقي. والسّعي وراء الحداثة الغربية هي الإصلاحات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية على وجه الخصوص في البلدان الغربية الأوروبية. (خوجة، 1975، صفحة 26)بالإضافة إلى أنّ هذا الوعي التاريخي يقف بنا نحو الخلفية التاريخية عند كلّ مجتمع، تجاربه وخبراته وتراكماته الفكرية والثقافية.

فمن الواضح أنّ الحداثة مرّت بدورها على مراحل تطوريّة، من منطلق فكري عقلاني يدعو إلى التخلّي عن الثقافات التي عرفتها المجتمعات الغربية ورفض كلّ ما هو ميتافيزيقي. ففكرة الحداثة قامت على تمجيد العقل حاملة بين طياتها التطلّع إلى النهوض بالمجتمعات الغربية على مستوى الأصعدة والمجالات، الفكرية والاقتصادية والسياسية. (خوجة، 1975، صفحة 74) وعليه، فإنّ الحداثة ظاهرة تاريخية في الفكر الإنساني، شملت جميع المجالات التي ذكرنا سابقاًن جعل منها حقيبة زمنية ليصبح ما قبلها يدعى ما قبل الحداثة، وبعدها بفترة ما بعد الحداثة. وفي هذا الشأن، فإنّ أبرز ما يوازي زمن الحداثة زيادة عن أفكارها التي تعكسها كظاهرة فكرية. والنقد الموجه للحداثة هو من ميّزها كمشروع تاريخي؛ فأصبحت بعد ذلك لها المركزية الثقافية في البلدان الأوروبية الغربية التي هي بصدد النشأة. فاتجهت أوروبا مع الحداثة لإعلاء ثقافاتها وقيمها ومعارفها، فصار العالم كلّه مستشعراً لها. ولهذا في دراستنا حول موضوع المنطقة العريقة في

الحضارة الجزائرية كثقافة تاريخية؛ جعلنا مرحلة الحداثة وما قبلها كفترة محددة للمراحل التاريخية في تأصيل المنطقة منذ نشأتها إلى غاية الحداثة وما بعد الحداثة (خوجة، 1975، صفحة 78).

2.مناقشة تاريخية مع التحليل:

في بداية القرن السابع عشر لاحظ الأتراك عند توغلهم في وادي "سباؤو"، الموقع الاستراتيجي للمر الجبلي "الوزالي" فقرروا بناء محطة مراقبة هناك، وجاءت بعض العائلات على غرار ما حصل عند تكوين القرى "العمراوية" في السابق، لتستقر بالقرب من المحطة التركية لتكون نواة لما سيصبح في ما بعد مركز "تيزي وزو"، وبعد قرن تقريبا من هذا الحدث كانوا قد عززوا تواجدهم في وادي سباؤو بتأسيسهم قيادة "سباؤو" التي اختارت برج سباؤو مقرا لها، وكان علي خوجة أول من تسلم هذه القيادة وهو الذي أعطى بعدا جديدا لتيزي وزو، بتحويل محطة المراقبة القديمة إلى قلعة حصينة تأوي حامية تركية مزودة بعدة مدافع، في البداية كانت التركيبة لتيزي وزو تشمل عناصر مختلفة، وبالطبع كان هناك الناطقون بالأمازيغية الآتون من الجبال المجاورة، كما كان هناك أيضا الناطقون بالعربية القادمون من "دلس" و"يسر" خاصة، استقبلت "تيزي وزو" بعد استقرار الأتراك بالبرج، العديد من العائلات التركية أو بالأحرى "الكولغلي"، المولود من زواج تركي وجزائرية، جاءت هذه العائلات من منطقة سيدي نعمان ومن برج "سباؤو" حيث تأسست بتشجيع من السلطة، محميتان مهمان من الكولوغيين (،أ.لوتورنو، 2013، الصفحات 312-320)، وأدى اندماج هؤلاء مع السكان المحليين إلى تعزيز صف من السكان المعربين الموجودين هناك.

وفي حوالي منتصف القرن السابع عشرة ونصف، عينت حكومة الجزائر ضابطا يدعى "على خوجة" لمراقبة منطقة القبائل ولتثبيت الوجود التركي بطريقة دائمة في حوض "سباؤو"، وكان الباي محمد بن علي أشهر القادة الأتراك الذين تعاقبوا على إدارة برج سباؤو، ليس فقط لدى رعيته من العمراوة بل ذاعت شهرته حتى في منطقة القبائل كلها، وبعد وفاة الباي أصبحت منطقة "عمراوة" مقسمة الى فريقين: أهل الفواقة وآل عمراوة التحاتة، وكان يمثل الفريقين

عائلتان لهما نفوذ حيث لعبتا دورا هاما في وادي "سباؤو" طيلة الحكم التركي لمنطقة القبائل وحتى إبان الاحتلال الفرنسي، وهاتان العائلتان هما عائلة آيت قاسي من قرية ثامدا وأولاد محي الدين من تاورقا (أرزقي، 2007، صفحة 157).

بعد حملة المارشال (Randon) واستسلام منطقة القبائل الكبرى، باشرت سلطات الاحتلال إثر حملة(1857) التي قضت على المقاومة القبائلية، باضطهاد السكان ومصادرة أملاكهم وإجبارهم على دفع غرامات جماعية سميت "مساهمات حربية" وكان قادة الانتفاضة هم أول المستهدفين مما جعلهم يختارون الهجرة على البقاء بعد أن صودرت أملاكهم، خصص مبلغ مهم من بين المبالغ التي سلبت من سكان القبائل لأعمال البنى التحتية وتطوير قرية "تيزي وزو" وقامت فرقة الهندسة العسكرية ببناء منشآت منها ثكنات عسكرية ومخازن للعتاد والتموين، ومساكن للضبط، كما تم بناء مستشفى صغير وتضاعف عدد المنازل التي كان الأوربيون الأوائل قد بنوها على جانبي الشارع الكبير لتمتد نحو الشمال (حديي، 2007، صفحة 183). وتم إنشاء حوالي عشرة مساكن لإيواء الخدمات العامة مثل مكتب البريد، المدرسة التابعة للبلدية، ومقر الدرك وبيت تبشيري، وكنيسة، ليصبح للقرية بهذه المباني الجديدة، شارع سمي شارع القديس "أوستاش". ويسمى حليا شارع الإخوة "سي معمر"، وفي سنة أكتوبر (1858) تأكدّ رسميا إنشاء المركز السكني الأوروبي "بتيزي وزو" (حديي، 2007، صفحة 186).

ومن بين الإفرازات الأخرى لاحتلال منطقة القبائل، تجدر الإشارة إلى ظهور الدعوة التبشيرية للدين المسيحي في المنطقة، حيث كان القساوسة يرافقون الجيش في حملاته، ويرون في الاحتلال فرصة لتحقيق أهداف الحروب الصليبية ضد الإسلام، واعتقد التبشيريين أن إقناع سكان منطقة القبائل بالدين المسيحي، أسهل من السكان الآخرين (فرج، 2007، صفحة 69)، ولكن بمجرد الاحتكاك الأول بهؤلاء على الاستمرار في تنفيذ خطتهم آملين في الوصول إلى غايتهم من خلال التعليم والنشاطات الاجتماعية واستعملوا حتى الإغراء بالمال الذي كانوا يوزعوه على الفقراء، إلا أن المصائب التي أرهقت سكان المنطقة في سنوات المجاعة والأوبئة، أعطت فرصة للمتحمسين من المبشرين للحصول على بعض النتائج، واغتنم "الكاردينال" كرب السكان وراح يجمع الأولاد الصغار من سكان المسلمين

اليتامى أو المهملين لتربيتهم على الدين المسيحي، وعندما يأتي الآباء يطالبوا بأبنائهم كان الأسقف يواجههم بالرفض التام معتبرا بأنه أنقذهم من الموت وبذلك أصبحوا تابعين له (فرج، 2007، صفحة 76).

كان في المقابل وكما سنرى فيما بعد، السكان الأصليون يرون أن نصف إمكانات قريتهم قد أخذ لصالح القرية الأوروبية الجديدة، وقررت سلطات الاحتلال بالجزائر بعد تيقنها من الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية لتيزي وزو، منذ (1871)، إعطاء الأولوية لهذا المركز على دلس المدينة التي كانت مقر الفرنسيين الإداري والعسكري لمنطقة القبائل، وأصبحت تيزي وزو بمرسوم صادر بتاريخ أكتوبر (1872) بلدية مستقلة ومقر الدائرة التي تحمل نفس الاسم، إلا أن الدائرة التي كان مقرها دلس لم تنقل إلى تيزي وزو إلا فيما بعد، كما منحت البلدية الجدية ستة الآلف هكتار للزراعة. وعينت الحكومة الفرنسية مجلسا بلديا لإدارة بلدية تيزي وزو في مارس (1874)، وتم تنصيب المجلس الذي كان جميع أعضائه من الأوروبيين يرأسهم (André Boyer) رسميا في فيفري (1875) (أجيرون، 1975، صفحة 286).

في سنة (1878) طرحت أعمال تعمير الحي الأوروبي الجديد مثل رسم الشوارع وتسطيحها وكذا تصنيف المباني قضية مساكن المسلمين الذين بقوا في منازلهم حتى بعد مصادرة ممتلكاتهم التي تعوق تنفيذ مشروعهم، ويطالب الاستيطانيون باستمرار طرد السكان المحليين، الذين باتت مساكنهم تمثل عقبة أمام استقرارهم، ولأن رئيس البلدية غير مخول بالبت في هذه القضية، قام برفع الأمر إلى سلطات الدائرة التي لم تتأخر في الرد: وافق المجلس على المشروع وأوصى بأن يكون توزيع الأراضي على المحليين نهائيا لطمأنتهم على مستقبلهم ولسد الباب أمام المشاغبين الذين قد يحثونهم على التمرد، نفذ مخطط الترحيل، بل طرد السكان الأصليون وأبعدوا عن الأوروبيين بسرعة، وفي أقل من سنة تم إعداد المكان الذي سيأوي العائلات المطرودة، وفي سنة (1880) كانت بداية تعمير الأحياء الجديدة مثل زلال حاج دحمان. "أوتابناليت" حاليا، و"الحمامتا"، "أويحموتان" حاليا، وحومة الحجر، وصفصافة و"عين حلوف"، بعد أن حقق الاستيطانيون

هدفهم المتمثل في طرد الأهالي من الجزء الجنوبي من القرية القديمة (يوسف، 200، صفحة 79).

كان الهم الكبر للمجلس البلدي حتى سنة (1880) ينحصر في الاستيلاء على الأراضي واقتناء المعدات، وتوفير المصادر لتجميل وتوسيع القرية الأوروبية، هذا إلى جانب توفير الأمن للاستيطانيين، هؤلاء الذين لا تزال أحداث (1871) عالقة في أذهانهم، كانوا ينظرون إلى المسلمين باحتقار، وحذر وخوف، ولهذا كان موضوع الأمن يطرح دائما في جلسات المجلس البلدي، فكان الفرنسيون يدعمون اقتراحات السلطات العليا طالبين إحضار جنود فرنسيين لدعم المحمية كما يلحون على إبعاد الرماة المجندين من الجزائريين عن تيزي وزو المشكوك في ولائهم، وأصبح هذا الخوف من المسلمين هاجسا لدى كل الأوروبيين كما تشهد على ذلك، على سبيل المثال، اللائحة التي واقف عليها المجلس البلدي في اجتماعه بتاريخ أوت (1881) والتي تحيط السلطات العليا بمناخ الخوف السائد لدى أوروبيي تيزي وزو، لأنهم يتوقعون انتفاضة جديدة (لونيسي، 2002، الصفحات 68-72).

ومن مظاهر التعمير في منطقة تيزي وزو، قامت مصالح الهندسة العسكرية ومقاولون الخواص بإنشاء عدة مبان إدارية، مثل السجن المدني، ومدرسة الأطفال، وقصر العدالة، ومقر جديد للبلدية وغيره، كما أنجزت بالتوازي عمليات مد أنابيب لتزويد المدينة بمياه الشرب، ووضعت حنفيات في بعض الأماكن بالمدينة، وأنيرت الشوارع ببعض الفوانيس، لكن القرية المسلمة بقيت رغم ضمها للمدينة الأوروبية، بعيدة عن هذه الانجازات العمرانية، إل أن المجلس البلدي تنازل وأنجز بعض الأشغال مثل تهيئة عين سلطان و"عين حلوف" وبناء مغسلة بشعبة الوادي، ونتج عن كل هذا تنمية التجارة في المنطقة، وتكاثرت الدكاكين والمقاهي ومحلات بيع المشروبات، ولأسباب اقتصادية سمح لسكان القرية المحلية رغم محاولة الاستيطانيين استبعادهم عن مدينتهم، بالدخول ليس فقط كعمال أو موظفين أو خدم بل أيضا كأصحاب دكاكين أو مطاعم شعبية أو كحرفيين أو أصحاب مقاهي، وبنشاط هذه المنطقة بالإضافة إلى حركة سوق السبت وإلى موارد الزراعة بالمناطق المجاورة، جعل من تيزي وزو عاصمة اقتصادية لمنطقة القبائل الكبرى (الفاسي، 1996، الصفحات 96-98).

أما بالنسبة للتعليم في تلك الفترة الاستيطانية لمنطقة القبائل، كان الأوروبيون ضد تعليم السكان المحليين، أنانية وخوفا منهم وكان العسكريون وأصحاب البعثات التبشيرية، على المستوى الإقليمي، وعلى عكس ذلك، يشجعون سياسات تعليم المحليين التي تسمح باستمرار الوجود الفرنسي وتسهل عملية التخاطب وتنصير المسلمين، مابين (1875) و(1880)، مجموعة مكونة من قدماء لإعداد مخطط لتعليم وفرنسة سكان القبائل الكبرى إذ كانوا يعتقدون بأنها انسب منطقة في الجزائر جاهزة لمثل هذا المشروع، وكان من منظريها الفريق هم الذين ابتدعوا الفكرة التي سماها المؤرخون بالأسطورة القبائلية، إضافة أن الفريق افتعل فكرة التفرقة بين العرب والقبائل، على أساس أن الأمازيغ أسمى من العرب، وكان دعاة فكرة التفرقة هذه يقدمونها على أنها عمل حضاري وتقدمي، قررت بعدها الحكومة الفرنسية التي كان يرأسها (Ferry Jules)، إنشاء أربع مدارس سميت بالمدارس الوزارية وتم بناؤها في القرى التالية: تامزيرت، وجمعه صهاريج وتيزي راشد وتاوررت ميمون لدى أهل بني يني، قوبلت هذه الفكرة من طرف سكان القبائل بالرفض لمل رأوه أن مقابل فتح مدرسة يتم غلق زاوية أو مدرسة لحفظ القرآن، إلا أن هذه الإجراءات التعسفية أثارت غضب السكان مما أدى إلى تدخل السلطات العليا، وقد اعترض فيما بعد على المدارس الوزارية بعض الفرنسيين أنفسهم من أولئك المنتخبين، إذ كانوا ضد فكرة تعليم السكان المحليين (الزواوي، 2003، الصفحات 61-65).

وبعد هذه المحاولة لفرنسة سكان القبائل المحليون، جاء دور الكاردينال (Lavigerie) للقيام بهذا العمل عندما عين الأميرال (Degueydon) حاكما عاما للجزائر، وكان الحاكم الجديد الكاثوليكي المندفع للفكرة، صديق للكاردينال/ مما سهل مهمة هذا الأخير في الحصول على الإذن والدعم لإنشاء مؤسسات دينية تنصيرية بمنطقة القبائل. قام بنشر خمس مراكز للآباء البيض، وتم فيما بعد تدعيم خطة الآباء البيض هذه بقدوم "الراهبات" الأخوات البيض لتسهيل مهمة الوصول إلى العائلات المسلمة، ورغم هذه المحاولات التنصيرية لمنطقة القبائل، إلا

أنها باءت بالفشل، ماعدا بعض الأفراد الذين تنصروا اقتناعا بذلك الأمر (شاكر، 2003، الصفحات 25-56).

وفي سنة (1919) عاد نشاط الأخوات البيض لتقوم بفتح مستوصف ومشغل لتعليم أشغال البيت، كما كانت تقمن بتعليم النساء القرويات صنع أدوات من سعف النخيل وغيرها من النشاطات المنزلية، ولم يستأنف الآباء البيض نشاطهم بالتبشير إلى المسيحية علنا والتي لم تأت بنتيجة تذكر، وفي سنة (1908) ظهر المذهب البروتستانتي بتيزي وزو مع وصول القسيس (Emile Rolland) وزوجته، كان عاملا سابقا بمصنع (Peuget)، كما أن (Emile) لم يتبع طريقة الآباء البيض المباشرة والمحتشمة في تعاملهم مع المسلمين، فهو لا يتردد في طرح دعوته علنا في الشوارع وحتى المقاهي الشعبية، وكذلك هو الآخر لم يوفق في تنصيره إلا أشخاص يعدون على الأصابع، وبعدها أتت عائلته واستمرت في محاولاتها وتنويع نشاطاتها التي تحولت إلى خدمات اجتماعية فيما بعد (الزواوي، 2003، صفحة 19).

قبل الحرب العالمية الأولى كانت تيزي وزو مركزا إداريا وتجاريا نشطا لكنه بقي بدائيا من الناحية العمرانية، وتوقفت مختلف المشاريع التي كانت قيد الإنجاز بسبب الحرب ولم تنطلق من جديد حتى عام (1929)، عرفت تيزي وزو مع تولي ريس بلديتها الجديد تغييرات هامة في الفترة ما بين (1925-1935)، وبنيت في هذه الفترة دار جديدة للدائرة، وسوق جديدة مغطاة، وقاعة الحفلات، قاعة عرض دائمة، إضافة إلى تهيئة الملعب البلدي وإصلاحات أخرى، وفي مجال التعليم تم توسيع المدارس الموجودة، وبناء مدارس جديدة مثل مدرستي البنات، إحداهما للفتيات المسلمات والثانية للفتيات الأوروبيات، ويعد أهم إنجاز في هذا المجال هو إنشاء مدرسة أطفال المحليين الجديدة، التي شملت اثني عشرة فصلا وسميت باسم العميد (Jean Marie)، والمدرسة الابتدائية العليا، وفي الأخير تم بناء مدرسة الفخار المعتاد لتستقبل تلاميذ محليين فقط تحت إدارة الأوروبيين (جوليان، 1978، صفحة 191).

التعديلات السياسية والاجتماعية للسكان المحليين المسلمين لمنطقة القبائل منذ سنة (1930)، أثارت الاحتفالات الصاخبة وتحرشات الاستيطانيين بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، عكس ما كان يتوقعه منظم تلك الحفلات،

غضب المسلمين وقد جاء هذا الاحتفال في الواقع ليتذكر الجزائريون بالوعود الكاذبة الداعية للإصلاحات، وبأنه لاشيء يرجى انتظاره من هذه القلية التي تؤمن باستمرار هيمنة فرنسا على التراب الجزائري، قامت جمعية العلماء الجزائريين بمنطقة القبائل في شهر ماي (1931)، (الكعاك، 2003، صفحة 123)وكان الشيخ على أولخيار من "ماكوده"، احد الأعضاء المؤسسين لها، وهو من القلائل في منطقة القبائل الذين اعتنقوا مبدأ الإصلاح في تلك الفترة، كان يتردد كثيرا على تيزي وزو مساهما إلى حد بعيد في نشر أفكار العلماء الإصلاحية بهذه المدينة وبالمنطقة كلها، وذلك عن طريق خطب ودروس بنوادي خاصة، محصورة على أتباعه، ومع ذلك فقد وقع الاختيار على مدينة دلس لرفع أول مشعل ثقافي لجمعية العلماء بمنطقة القبائل، بمجهدات سي الطيب بن ناصر احد خيرة أبنائها الذي وهب نفسه لهذا الغرض فأنشأت مدرسة عصرية حرة في سنة (1931)، وبعدها تم تأسيس مدرسة مماثلة لها في تيزي وزو وحصلت اللجنة بعد تلبية شروط إدارة معادية لمثل هذه المشاريع، على الموافقة في بداية (1934)، وقام المجلس المنتخب مباشرة بعد الموافقة على إنشاء الجمعية، بنشاطات واسعة، ولم تنته سنة (1934) حتى كان "للشبيبة" مقر مجهز بلوازم التدريس مثل الطاولات والسبورات وغيرها، وأوكلت إدارة المدرسة للشيخ حمزة وهو الذي قد أنشأ مدرسة دلس سنة (1931)، إلا أن المصاعب لم تنته إذ أن رئيس الدائرة اعترض شخصيا على تعيين الشيخ حمزة مديرا للمدرسة، (فرج، 2007، صفحة 109)ومع ذلك فقد نجح أعضاء الجمعية بفضل حزمهم وتفانيهم على التغلب على كل العقبات مما مكن "الشبيبة" من تقديم تعليم عصري للشباب والكبار، دام حتى اندلاع حرب التحرير.

ظهرت المجموعات الأولى للكشافة الإسلامية بالجزائر في الثلاثينات، وتمت فعاليات هذه المجموعات بمبادرات محلية وبشكل مستقل إذ لم يكن هناك بعد ارتباط أو تنسيق بينها إلى أن تم إنشاء فيدرالية الكشافة الإسلامية الجزائرية بمبادرة من محمد بوراس (الزواوي، 2003، صفحة 195)، وفي تيزيوزو كانت مجموعة الهلال من بين تلك المجموعات التي عملت على نجاح وتوحيد الكشافة الإسلامية الجزائرية وحققت هذه المجموعة، بفضل إيمان قادتها وحزمهم وخبرتهم، نتائج

هامة في فترة زمنية قصيرة، أهمها تكوين الإطارات التي لعبت أدوارا هامة على المستوى الوطني بالنسبة للكشافة الإسلامية الجزائرية، وقامت مجموعة الهلال على مستوى الناحية بمهمة تنشر فيها الدين الإسلامي، تمثلت في عدة أماكن، مما شجع العديد من الشباب على الانضمام للمجموعة أو طلب المشورة والمساعدة لإنشاء وحدات كشفية جديدة (جوليان، 1978، صفحة 61).

بالنسبة للنشاطات الرياضية لمنطقة تيزي وزو، أسس الأوروبيون أول نادي رياضي بتيزي وزو، وكان في البداية يضم فقط أبناء الموظفين والاستيطانيين، إلا أنه سرعان ما جلب إليه شباب من السكان الأصليين من الطبقة الثرية التي سكنت القرية الأوروبية، وفي سنة (1925)، بدا أبناء القرية المحلية يهتمون برياضة كرة القدم، وكان الملعب الرياضي يود بين عين حلوف وموقع صفصافة، وكان المكان المفضل للقاء الشباب من مختلف الأحياء للعب كرة القدم، لفت اهتمام هؤلاء الشباب بلعب كرة القدم، انتباه مسيري الأولمبي الذين كانوا يخشون من وجود نادي منافس لناديهم وبدؤوا، من باب هؤلاء النخبة الجزائرية ركيزة الأولمبي الذين رفعوا النادي إلى أحسن مستوى (الفاسي، 1996، صفحة 154).

3.خاتمة:

ساهمت منطقة القبائل في الدفاع عن الوطن عبر التاريخ، خاصة خلال حقبة الاحتلال الفرنسي، بدءا بمعركة "سطاولي" التي جندت لها زواياها مما لا يقل عن خمسة وعشرين ألف مجاهد، وهو الرقم الذي يعادل نصف العدد الإجمالي المجند لمواجهة جيوش فرنسا الغازية، وبعد الإخفاق في دحر العدو وانسحاب الأتراك العثمانيين، شرع سكان القبائل في تنظيم المقاومة الشعبية في منطقة "متيجة" تحت قيادة الحاج محمد بن زعموم الذي دامت مقاومته حوالي أربع عشرة سنة، ولعل في ذلك دلالة عميقة تؤكد وطنية سكان القبائل، هذا وقد استماتوا في الدفاع عن أرضهم وأذاقوا الفرنسيين الأمرين، إذ لم يتمكن الاستعمار من دخولها إلا بعد مرور سبعة وعشرون سنة على احتلال مدينة الجزائر التي لا تبعد عنها إلا بحوالي ستون كلم فقط، ورغم سياسة الإبادة التي أهلكت الحرث والنسل فإن السكان لم يستكينوا، فتعاقبت ثورات عديدة: بوبغلة، الشيخ أعمر، فاطمة أنسمر، الحداد، المقران...الخ، إلى أن ظهرت الحركة الوطنية بقوة سواء

أثناء وجودها في المهجر باسم "نجم شمال إفريقيا" أو بعد انتقالها إلى الجزائر باسم "حزب الشعب الجزائري"، ومن جهة أخرى شارك علماء القبائل في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت بمثابة البعد الروحي والفكري للحركة السياسية، وبعد اندلاع ثورة نوفمبر المظفرة احتضنت المنطقة مِؤتمر "الصومام" التاريخي.

ومن المؤكد أن الإسلام هو الحبل المتين لهذه العلاقة التكاملية، ولئن كانت منطقة القبائل تتميز بقوة تمسكها بالبعد الأمازيغي، فإن ذلك لا يعني تمايزها إلى حد الخلاف عن باقي الجزائر، فروابط التاريخ والحضارة الإسلامية القوية رجحت تلاحمها مع المناطق الأخرى، بل وأكثر من ذلك كانت هذه المنطقة منارة للعلم غرف منها الجزائريون والأجانب أيام "الحماديين" حولوا "بجاية" إلى جامعة عالمية يقصدها المسلمون الأوربيون.

المراجع المعتمدة:

.ترجمة مخلوف عبد الحميد .*منطقة القبائل والاعراف القبائلية* .(2013) .أ ,لوتورنو.،أ
.دار الامل للنشر والتوزيع :تيزي وزو

المجتمع الجزائري في مخبر الأيديولوجية الكولونيالية، ترجمة .(1975) .ر .ش ,أجيرون
.المنار :مصر .*محمد العربي ولد خليفة*

دار الأمل للطباعة والنشر :تيزي وزو .*اطلالة على منطقة القبائل* .(2007) .م ,أرزقي
.والتوزيع

.مطبعة الارادة :تونس .*جماعة المسلمين* .(2003) .ي .أ ,الزواوي

.مطبعة الرسالة :راكش .*الحركات الاستقلالية في امغرب العربي* .(1996) .ع ,الفاسي

.مطبعة النجاح الجديدة :الدار البيضاء .*البربر* .(2003) .ع ,الكعاك

.مطبعة البعث :قسنطينة .*أصالية أم انفصالية* .(1980) .ب .م ,بلقاسم

الدار :تونس .*تعريب محمد مزالي:تاريخ غفريقيا الشمالية* .(1978) .أ .ش ,جوليان .التونسية للنشر

مقاربة سوسيو انتربولوجية لمكان مقدس في منطقة القبائل، .(2007) .أ .م ,حديي .منشورات زرياب :الجزائر .*اودريس الزاوية العامرية، ترجمة عبد القادر بوزيدة*

الشركة :الجزائر .*تعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري .المرآة* .(1975) .ب .ح ,خوجة .الوطنية للنشر والتوزيع

:تونس .*ترجمة منصوري .الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر* .(2003) .س ,شاكر .دار القصبة للنشر

.ثالة للنشر والتوزيع :الجزائر .*تاريخ تيزي وزو* .(2007) .ا .م ,فرج

.دار المعرفة :الجزائر .*دعاة البربرية في مواجهة السلطة* .(2002) .ر ,لونيسي

.*ترجمة أبو العيد دودو .ثلاثة سنوات في شمال غرب إفريقيا* .(1979) .ف .ه ,مالتسان .دار المل للنشر والتوزيع :تيزي وزو

تيزي .*مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي ثورة بوبغلة* .(200) .س .م ,يوسف .دار الامل للنشر والتوزيع :وزو